٣
قصص الصحابة
عمرو بن العاص (رضى الله عنه)
عماد الشافعى
المركز العربي الحديث

## عَمْرو بنُ العاص ( رضى الله عنه )

كَانَ عَمرْو بن العَاص بنُ وائل تَاجراً من أشْراف قُرَيش. وكانَ دَائمَ الترْحال إلى بلاد اليَمن والحبَشة والشَّام ومصْرَ، وقَدْ أكْسبَتْهُ هَذه المهنةُ دَهَاءً وسياسةً وجُرْأةً.

ذَهبَ ذاتَ مَرْة بتجارَة مَعَ نَفَر منْ قُرَيشْ إلى بَيْت المَقْدس.

وهُناكَ كَانَ يتناوبُ مَعَ أصْحَابه فى الجبَال رَعْىَ الإبل. فبينما عَمْرو يَرعْى إبلهُ فى يَوم شَديد الحَرَّ إذْ مَرَّ عَليه رَجُلٌ أصابُه عَطشٌ شَديدٌ، فسقاهُ عمَرْو منْ قرْبة حَتى أرتَوى ثُمَّ نَامَ فى ظلٍّ صخرة. خَرَجَتْ حيةٌ كَبيرةٌ منْ حُفرة بجوَاره، ولَمحَها عَمْرو تَقتَربُ من الرَّجل فَنزَعَ سَهْماً وبَسرعَة وَضعهُ فى القَوْس، وفى لَمح البَصر كَانَ السَّمُ قَدْ أصَابَ الحيَةَ فى مَقْتل.

وهُنا صَحا الرَّجلُ مفزُوعاً يتَلفتُ حَوْلَهُ: ما الأمْرُ؟!

وعنْدمَا رأىَ الحَيَّةَ الضخْمَةَ جُثَّةً هامدةً. وعَمْرو يَقْربُ منهُ بخُطُوات ثابتَة وَوَاثقة أدْركَ حَقيقَةَ الأمر. وقامَ فَرحاً يُعانقُ عَمْرو وَيُقَبِّلُ رأسَهُ وهو يُردِّدُ: يا لكَ منْ رَجل نبيل لَقَدَ أصْابَنى اللهُ بكَ مَرَّتَين.. مَرةً منْ شدَّة العَطَش، ومَرةً منْ هذه الحيَة. ثُمَّ سَألَ عَمْرو:

- كَمْ كُنتَ تَرْجُو أنْ تكْسب منْ تجارتكَ هَذه؟

قَالَ عَمْرو: أنْ أكْسبَ مَا أشْترِى به بَعيرَيْنِ أو ثلاثَ وأرَجْعُ ببضَاعة من العُطور والحرير.

قَالَ الرَّجُلُ: وكَمْ تَكونُ ديةُ أحَدكُم بَيْنكُم؟

قَال عَمَرْو: مائةُ من الإبل.

قَالَ الرَجُلُ: لَسْنا أصحابُ إبل، بَلْ أصحَابُ دَنَانير.

قَال عَمَرْو: إذاً يكونُ ثَمنُ الدّيةُ ألفُ دينار.

قَالَ الرَّجلُ: إنّى رَجلُ غَريبُ فى هَذه البلاد، وإنّما جئتُ إلى بَيت المقَدْس لأصَلّى وأتَعْبدُ وأسيحُ فى هذه البلادِ شَهْراً. وكانَ هَذا نَذْراً عَلى نَفْسى.

قَالَ عَمْرو: وَهَلْ أدَّيْتَ مَا كَان عَليكَ منْ نَذْر؟

قَالَ الرَّجلُ: نَعَم أدَّيتُ ذَلكَ والحَمْدُ لله، وأنَا الآنَ راَجعُ إلىَ بلادى، فَهَل لَكَ أنْ تَتْبعنى إلى بلادَى، ولَكَ عَهْدُ الله وميثاقه أنَ أعْطَيكَ ثمنَ ديتَين، لأنَّ اللهَ أحيانى بكَ مَرتَين.

قَال عَمْرو: وَمنْ أىِّ البلاد أنْتَ؟

قَالَ الرَّجُلُ: مصَر.. منْ مَدينة تُدعَى الإسكَنْدريَة.

قَالَ عَمْرو: قَدْ ذَهَبْتُ بتجارتى إلىَ بلادٍ كثيرةٍ ومنها مصرَ ،لكنَّ تلكَ الأسكندريةَ لَمْ أدْخُلها منْ قَبْلُ.

قَالَ الرَّجُلُ: لَوْ دَخَلْتَها لَعلِمتَ أنَّكَ لَمْ تَدْخُل قطُّ بَلداً مثلها!

نَظرَ عَمْرو إلىَ الرَّجلِ بريبَة، لكنْ لَمح فى عَيْنيه دَلائلَ الإمْتنان والصِّدق، فسأله عَمْرو: أتَفى لى بمَا تَقُولُ؟

قَالَ الرَّجُلُ: نَعَمْ، وأعاهدُ اللَّه أن أرُدَّكَ أيْضاً إلى أصحَابكَ.

قَالَ عَمْرو: وكَمْ نَمْكُثُ فى ذلكَ؟

قال الرَّجُلُ: شَهْراً.. تَنْطَلقُ معى ذاهباً عَشْراً، وتقيمُ عندى عَشْراً وتَرجعُ فى عَشْرة أيّام.

قَالَ عَمرو: أمَهْلنى حتَى أشَاورَ أصحَابى.

وانْطَلَقَ عَمْرو يُشَاورُ أصحَابَهُ فوافَقوا، وتَعاهَد مَعَهم علَى أنْ يُقيمُوا فى المكَان حتَى يَرْجعَ إليْهم وأنْ يُشَاطرهُم ذلكَ المالَ، وأن يَصْحَبهُ رَجلٌ منْهُم ليأنَسَ به.

وانْطَلَق عَمْرو وصَاحبُه مع الرَّجل إلى الإسكنْدَرية، وهُناكَ رأىَ عَمْرو مدينةً جميلةً ونظيفةً، ووافقَ دُخولُ عَمْرو الإسَكَنْدَريةَ عيداً كَبيراً يَجتَمعُ فيه أشْرافُهُم، ولَهُم كُرةٌ منْ ذَهَب يَترامَى بها هَؤلاء ويَتلَقفُونَها بأكمَامهم. وكان ظَنُّهم (اعتقَادُهُم) أنَّ كُلَّ من

وَقَعتْ الكُرةُ فى كُمِّه لَم يَمُتْ حَتَّى يكُونَ مَلكاً عَلَيْهم. ولأنَّ الرَّجُلَ كَانَ ثَرياً، فقد أكرمَ عَمْرو وأحْسنَ ضيافَتهُ، وأهَداهُ ثَوْباً منْ الدِّيباجِ، واصطَحَبهُ إلى ذَلكَ المَجْلسِ حَيثُ يترَامى فيه الأشْرافُ بالكُرة.

وهُناكَ أخْذَهُم الرَّجلُ بما فَعَلهُ عَمْرو منْ معَروف أنْقَذَ به حَياته. وبَيْنما هُمْ كَذلكَ إذ وَقَعْت الكُرةُ فى كُمِّ عَمْرو بن العَاصِ، فَسكَتُوا جَميعاً ونَظَروا إلى بعضهم فى دَهْشَة.

وقَالَ أحَدُهُم: مَا كَذَبتنا هَذه الكُرةُ قَطُّ إلاّ هَذه المَرَّة!!.. أتُرى هَذا الأعرابىُّ الضَّيفُ يملكُنا؟! هَذَا لا يكُونُ أبَداً.

وعَادَ عَمْرو إلى أصْحابه مُحمّلاً بالهَدايَا، وعَرفَ مَدْخلَ مصْر وطُرُقَها ومُدُنَها، ودَفعَ إلى أصَحابه ألفَ دينار، وأبْقى لنفسه ألْفاً. وانطلقَ الرّكبُ بتجارتهم عائدين إلى مكةَ.

* * *

كَانَ الإسْلامُ يتَشرُ فى مكةَ عَلى غَيْر ما يَهوْى أشْرَافُ قُريَش. وكَان المُشركُونَ يُعذّبُونَ المُسلمينَ حَتى يَرْجعوا عَنْ دينهم إلى دين آبائهم وأجْدادهم، وعَانَى كثيرٌ منَ المُسلمين منْ الإضطهَاد، وأذَنَ النَبىُ ﷺ لبعَضهم بالهْجرَة إلى الحَبشة. حَيثُ هُناكَ مَلكٌ لا يُظلَمُ عنْدهُ أحدٌ حَتَى يأتى اللهُ بالفَرجِ.

وأثارَ فرارُ المُسلمينَ إلى الحَبَشة غَيْظَ المُشركينَ، فتبادلوا الرَّأىَ بَحْثاً عَنْ وَسيلة لردْعهم ورَدِّهم إلى مكةَ. وقالُوا: لَيْسَ لها إلاَّ عَمْرو بنُ العاص صَديق النجاشى.

وخَرجَ عَمْرو وعَبْدُ الله بنْ أبى رُبيعةَ منْ مكةَ يَحْملان إلى مَلك الحَبشَة وإلى بَطارقته هَدايَا كَثيرةً. واستَقْبَلهُم النَّجَاشىُ استقبالاً طَيباً وقَبلَ هَدايَاهُم وجَلَسوا يَتحدَّثُونَ.

قَالَ عَمْرو بنُ العَاص: أيُّهَا الملكُ، إنَّه قَدْ أتى إلى بَلدكَ منَّا غلمَانُ سُفهاءُ، فارقَوا دينَ قَوْمهم ولَمْ يَدْخُلوا فى دينكَ، وجَاءوا بدِيْن ابتَدعُوه لا نعرفُهُ نَحْنُ ولا أنْتَ، وقَدْ أرْسلَنا إليكَ أشْرَافُ قوْمهم لتسلُمهُم إلينا.

فَقَال النَّجاشىُ: لاَ واللّه لا أسَلِّم قَوماً استَجارُوا بى ونَزَلُوا بلادى حَتى أسْمعَ كَلاَمَهُم. وأرْسلَ إلى المُسلمينَ فجَاءوا وسَألَهُم عَنْ هَذا الدِّين. فَقَامَ جَعفرُ بن أبى طَالب وتحَدْثَ مُوَضحاً تعَاليمَ الإسلام، وتَلى آيَات منْ سُورة مَرْيم.

فَلمَّا سَمعَ المَلكُ سورةَ مَرْيم وسَمعها الأسَاقفةُ تأثَّروا وبَكُوا.

وقَالَ النَّجَاشىُّ: إنَّ هَذا والذى جَاءَ به عيسَى لَيَخْرُجُ منْ مشكاة واحَدة، ثُمَّ التفَتَ إلى عَمْرو وصَاحبُه وقَالَ انْطلقا واللّه لاَ أسلمُهم

اليكُما، ورَدّ عليهما الهَدَايا. فَرَجعَ عَمْرو وصاحبَهُ يَجُرَان أذيالَ الخِزيِ والحَسْرة.

* * *

أصبَحَتْ المَدينَةُ مَوْطناً للدِّين الجَديد، وأصبَحت قُريشُ تَرجُفُ كُلما علمت بانتشار الإسلام وتَمَسُّك النَّاس بمحُمَد، وكَان لابَّد مَنْ المُواجَهة فكَانتَ معَركةُ بَدر الكُبرَى، وانتصرَ جَيْشُ المُسلمينَ عَلَى جَيْشِ قُرَيْش، ثُمَّ انتزَعَت قُريشُ النَّصرَ منْ المُسلمِين فِي غَزوة أحُد.

وأرادَتْ قُريشُ القيامَ بعمَلية عَسكريَة كَبيرة تكونُ الضَّربةَ القَاضيةَ عَلى الإسلام والمُسلمينَ، فكَوَّنَتْ مَنْ قُريش والعَرب أحزاباً وخَرَجتْ فِي جُموعٍ هائلة ولكنَّ اللهَ هَزَمَهُم وَرَدَّهم خَائبينَ.

ورَجعَ عَمْرو بنْ العاص إلى مكةَ، حَائراً مُفكراً، يَسألُ نَفْسَه: كَيْف مُنيَ جَيْشٌ قَوىٌ هَائلٌ بالهَزيمة أمامَ المُسلمين؟! وأدَركَ أنَّ النزَّاعَ بَيْن قُريش ومُحمّد لَنْ يطَولَ، وأنّ مُحمَّداً عَلى حَقَ.

استَيقظَ عمَرْو بنُ العاص ذَاتَ يَوَم وركبَ دابَتهُ وخَرجَ منْ مَكةَ ولَم يَبْعُدُ قَليلاً عَن الدِّيار حَتى سَمعَ صَوْتاً يُنادي:

- إلى أين يا عَمرْو بن العاص؟

التَفَتَ عَمْـو فَرأىَ خَـــالدَ بنُ الوَلِيـد عَلى رَاحلَة له بصُحبَة عُثمانَ بنِ طَلْحة فَقَال عَمْرو: إلى حَيثُ أُرِيدُ يا ابنَ الوَلِيدَ، وإلى أَينَ أَنتَ؟

وتَبَسَّم خَالدُ وقَدْ أدرَكَ وجْهَةَ عَمْرو، فقالَ: فى طريقكَ أنْتَ.. لَقدْ فكرَّنا وأنتهَينا إلى مَا انْتهَيتَ.

قَال عَمْرو: حَسَناً فَعَلتَ.. لقَدْ استَقَامَ الأمرُ يا صَديقى ومُحَمدُ نَبىُ ولا جَدْوىَ منْ المُكَابَرة، ولا يَنفَعُ العنادُ.

وعنْدما انتهَى الثَلاثةَ إلىَ المدَينة، دَخلَ خَالدٌ عَلَى النَّبى وأسْلَم ثمَّ دخلَ عَمْرو عَلى النَّبَى وأسَلمَ وسَألَ النبىَّ الصَفحَ والمغفرةَ، فَبشَّرَهُ النبَّىُ أنَّ اللَهَ رَحيمٌ يَقْبلُ التَّوبةَ ويعفُو عَنِ السَّيئات.

* * *

كَانتْ قَبائلَ قُضَاعة عَلى طريق الشَّام تَجْمَعُ جُموعَها وَتَتأهبُ للزحَف عَلى المدَينة ومُهاجمة المُسلمينَ، وَرأىَ النَّبىُ أن يُسندَ مُهمَةَ إخمَاد هَذه الحَركة إلى عَمْرو بنُ العَاص، فانطَلق عَمْرو بسَرِّيةَ منْ ثَلاثة آلافَ مُقَاتلَ حتى وَصلَ إلى آبار يُقالُ لها ذَاتُ السَّلاسلَ، رأىَ بَعْد اسْتطلاعِ الموقفِ أن عَددَ الأعْدَاء كَبيرُ، فأرسلَ عَمْرو إلَى

النَّبىِّ يَطْلُبُ منْهُ المَدَدَ.

فَأَمَّدَهُ النبَّىُ بمائتين منْ خيرَة المُهاجرينَ والأنصار كَانَ فيهم أبو بكر الصِّديق وعُمرُ بنُ الخطَّاب وأبو عُبَيدُة بنْ الجَراح. وَصَلَّى عَمْرو بالنَّاس أيَاماً، ثُمَّ تقَدَّمَ بهم وَهَجَم عَلى الأعداء هَجْمَةً شَدِيدَةً فَتمزقَ شَمْلُ الأعَدا، وقُتلَ بَعضُهم ولاذَ الباقَون بالفرَار.

وأرَادَ المُسلمونَ مطُاردتهم فى الشِّعاب لكن عَمْرو صَاحَ فيهم: أثْبتُوا ولا تَتْبَعوا الفَارِّين، كَفىَ هَذه الرؤوسُ التَى تَملأ بَطنَ الوَادى.

فتَذمَّر بَعضُ الجُند وقَالوا: ولماذا لا نَتْبَعُهمُ حَتى نقضَى عَليهِم أوْ نَأسرَهُم؟

قَال عَمْرو بحَزمٍ: هكذا أمرتُ والوَيلُ لمنْ يخالفُ أمرْى!

وأطَاعَ المُسلمونَ عَمْرو عَلى مَضَض، وأقْبل اللَّيلُ، والمُسلمونَ فى خيامهم يَرْجُفُون منْ البرد، فأسْرعُوا يُوقدون نَاراً.

وهُنا انبعَثَ صَوتُ القائد عَمرْو بنُ العاص يَنْهَاهُم عَنْ ذَلكَ ويُحَذِّرُهُم منْ مُخالفة أوامرهُ. فَصَبرَ المُسلمونَ وباتُوا ليلةً قاسيةً وعَزمُوا عَلى أنْ يَرْفعوا أمْرَهم إلى النَّبىَ ﷺ، ويَشْكُون إليه قَسْوةَ عَمْرو.

وعندمَا كَلَّمَه النَّبىُ فى ذلكَ قَالَ عَمْرو: يَا رَسُولَ الله كَرِهْتُ أنْ يُوقدوا نَاراً فَيَرى عَدُوهَمُ قلَّتَهُم، وخشيت أنْ يتعقَّبوا الأَعَداءَ فيكونُ ذَلكَ كَميناً للمُسلمين. فأُعجَبَ النَّبىُ بذكاءِ عَمْرو وأثْنىَ عَليه خَيْراً.

أرْسَلَ النَّبىُ عَمْرو مَع نَفر من المُسلمينَ إلى قَبيلة هُذَيْل لَهدم صَنم كَبير كَانَ يُعْبدُ من دُونَ الله، وكَانوا يُسمُّونَه سُوَاعُ. ونجَحَ عَمْرو فى آداء مُهمَته. وبعَدها أرْسَله النبّىُّ إلى مُمْلكة عُمان فى مُهَمة سياسية، إذْ كَان أهلُها يَعْبدُون النَّار، وكان يَحكُمُها أخَوان يُدعيَان جَيْفر وعبَّاد.

وَصلَ عَمْرو إلى عُمَان يَحملُ إلى مَلكَيْهَا رسالةً منْ النَّبى ﷺ تَدْعوهُما إلى الإسْلام، ونَجحَتْ دبُلوماسيةُ عَمْرو فى إقْناع هَذيْن الأخَوَين فى الإسلام، ودَخلَ النَّاسُ فى هَذه المَمْلكَة فى دين الله وتركوا المَجوُسية. وسُرَّ النَّبىُ بذلكَ وكَافأ عمَرْو بولاَية الزَّكاة فى تلك البلاد. وعَاشَ عمَرْو فى عُمان يَجمَعُ الزَّكاةَ من الأغنياء وَيُوزعُهَا على الفُقرَاء ويُعَلّمَ النَّاسَ قَواعدَ الدِّين، حتَى جَاءَهُ ذَاتَ يوم كتابُ مَختومُ منْ المدَينة. وعنْدما فَضَّهُ وقرأهُ عَلمَ أنّهُ منْ «أبى بكر» خليفةُ المسلمين. وأنهُ يُخبرُه بوَفاة الرَّسول ﷺ، وأنْ يَبْقى كُلُ شىءٍ إلى مَا هُو عَليه.

كَانَتْ الدُّموعُ تَنهَمرُ منْ عَيْنى عَمْرو وَهُو يَقرأ الرسَالةَ، وراَحَ يَتلقَى العزاءَ فِى النَّبىِّ، والنَّاسُ فى حُزن يُواسِى بَعْضُهم بَعْضاً.

أرْسَلَ أبو بكر الصِّديق إلى عَمْرو بنُ العَاص لحرَب المُرتدَينَ من قَبيلة قَضَاعة، ولَبَّى عَمرْو النِّداءَ، وعَادَ إلى خَليفةَ المسُلمَين حَاملاً لواءَ النَّصْر. وأرَادَ أبو بكر تأمينَ حُدود الجَزيرة العَربيةَ ومُجابَهة إمبراطورية فارس والرُّوم، وفَتْح هذه البلاد لنَشْر الإسلام فيها.

انطلقَ جيشُ المُسلمينَ بقيادة عَمْرو بنُ العاص منْ المدَينة لفتَح الشَّام، فاتَّجهَ إلى إيلات (إيلياء) قاصداً فلسطين، وفى طَريقَه كَانَ يَستَنفرُ القبَائلَ للجهاد فى سَبيل الله حَتى كَانَ مَعَه تسْعَةُ آلاف مُقاتل.

وفى هذه الأثْناء كَانَ خَالدُ بنُ الوليد يتَقدَّمُ بجَيش لفَتح العراَق، وأبَو عُبيدَةَ بنُ الجَرَّاح يَتَّجهُ إلى حمص، ويزيدُ بنُ أبى سُفيان يَتَّجهُ إلى دمَشقَ وشُرَحْبيلُ بنُ حَسنة يَتّجهُ إلى وَادى الأُرْدُن.

وكَانَتْ أوَامرَ الخَليفةُ أبو بكر الصِّديقَ أنْ يُعاون بَعْضُهم بَعْضاً وأنْ يَكُونوا جَميعاً تحَتَ إمْرة أبى عُبيدة بنُ الجَراح فى الشَّام.

واجَهَ عَمْرو بنُ العَاص بجيَشه مائةَ ألف مُقاتل منْ الرُّوم،

وفكرَّ عَمْرو كَيفَ يُزَعْزِعُ هَذه الحُشود الهَائلة فى مَنْطقة تُسمَّى « غَمْر العَربات» فعَقدَ رَايَةً وأعطَاها لعبدَ الله بنُ عَمرَ وضَمَّ إليه ألفَ فارس دَاهَم بهم عَشَرةَ آلاف من الرُّوم، وطَعنَ عَمْرو كَبيرُهُم فَخرَّ مَيتاً، وهُنا دَخَل الرُّعْبُ فى قُلوب الرُّوم لمَا رَأوْهُ فى المُسلمين منْ شَجاعة وإقْدام عَلى المَوت، ففَروا تَاركينَ الغَنائمَ.

وفى الصَّباح أشْرَقَتْ عَلى المُسلمينَ عَشَرةُ صُلْبان، تحَتَ كُلِّ صَليب عشَرة آلاف مُقاتل. فَأقْبلَ عَمْرو يُرتِّبُ الجُنْدْ، فَجعلَ فى مَيْمنة الجَيْش الضَّحاك، وفى المَيْسرة سَعيدُ بنُ خَالد، وعَلى السَّاقة (مؤخرة الجيش) أبا الدَّرَداء. وثَبتَ هُو فى قَلْب الجَيْش وراحَ يقوِّى الرُّوحَ المَعْنويةَ فى الجُنود فأمَرهُم بتلاوة القُرآن، وكَان يَسيرُ بجواده أمَامَ الجَيْش يُذكَّرهَمُ بالله ويَحُثُّهُم علىَ القتالَ فى سَبيلِ الله، وأنْ يكَونَ هَدفُهم ثوَابُ الله والجَنَّة.

كَانَ جَيْشُ الرُّوم يقُودُه بَطْريقٌ يُدعَى «رُوبيسُ»، ودَارتْ المعَركَةُ والْتحَمَ الجَيْشَان، وتَفَّرقتْ جُموعُ الرُّوم، وتَعقَّبَ المُسلمون الفَارِّين من الروم، وكَانتْ خَسارةُ الرُّوم خَمْسةَ عَشَر ألفاً وخَسَارةُ المُسلمين مائةٌ وثلاثين.

وفى المَساء كَانَ عَمْرو بنُ العاص فى خَيمَته يكتُبُ إلى أبى

عُبَيدةَ بنُ الجراح مَا حدَدثَ على أرَض فِلسطين، ويَسألهُ إنْ كَان فِى حَاجة إليه.

ومَاتَ أبُو بكر الصِّديق، وتَوَّلى عُمُر بنُ الخطاب الخلافةَ منْ بعَده، وأقَرَّ الأمُرَاءَ عَلى ما كَانوا عَليه، وضَمَّ خالدَ بنُ الوَليد إلَى أبَى عبُيَدة بنُ الجرَاح، وأمرَ عَمْراً بمَعُونة جَيْش المسلمين.

وسَارَتْ جُيوشُ المُسلمين تَخْترقُ الأدغالَ والجَبالَ حَتّى وَصَلتْ إلى دمَشق. وشَدَّد المُسلمونَ الحصارَ عَلى أهْل دمَشق سَبْعين يوَماً ومَنعوا عَنْهم المَددَ حتَى نَفذتْ المؤُن، عنْد ذَلكَ دَارتْ بعضُ المُناوشَاتُ التَى أفْضَتْ بعدَها إلى الصُّلْح.

وانطلقَ أبُو عُبيدةُ بنُ الجراح بجَيشه يفَتحُ المُدنَ الوَاقعةَ شَمالىَّ الشَّام كحمص وحماة وحَلب واللاذقَية وغَيْرها. بينما حَرفَ عَمْرو همتَهُ إلى القَضاء عَلى قُوة الرُّوم بفلَسطيَن وفَتْح مَا لَم يُفْتحَ من بلادها، فَسارَ بجيَشه ناحيةَ فلسْطين، وكانَ عليهَا وال داهية يُدعْىُ «أرَطْبون»، عَلم بانتصَارَات المُسلمين فى شَمال الشَّام وعَزمهم عَلى فتَح فلسطين، فَوضَعَ جُنْداً كثيراً ببيْت المَقْدس، وغَزَّةَ والرَّملةَ وخَيَّمَ بجيَشه بأجْنادين وأرادَ عَمْرو أنَ يُرتب خُطَطه عَلى مَعْلومَات سَليمة عَنَ جَيْش الأعَداء، فَذهَبَ بنفَسه إلى مَقرٌ

الأرْطبون واستَأذنَ عَليه مُدَّعياً أنهُ رَسولُ عَمْرو بنُ العاص قَائدُ جيشِ العَرب؛ فَأذنَ لهُ الأرْطَبونُ ودَخلَ عليه عَمْرو فحيَّاهُ، ودارَ بينهُمَا حِوارُ. سألهَ القائدُ: هَلْ عَمرْو دَاهيةٌ كَمَا تَقُولُون؟

فَقَال عَمْرو: عَمْرو يَا سيِّدى سَهْمٌ من سهامِ الله، يَعرِفُ أيْنَ يَضَعُ قَدمَهُ وأين يُوجهُها وما دَخل فِى شَىءٍ إلاَ خَرجَ مِنْه.

الأرَطَبون: وكَمْ عَددُ جَيشه؟

عَمْروٌ: لا أدَرى يا سَيَدى، فأنَا رَسُولُ عَمْرو، جئْتُ أبلِّغكَ رِسالتَهُ وأدْعوكَ بلسانه إلى الإسَلامِ، فَإن أبَيْتَ فالتَسليمُ ودفْعُ الجزية، وإلاَّ فَالحَرب.

الأرَطَبون: وهَلْ بقليلُكمُ أيُّها العَربُ ستَغلبونَ الأرْطَبونَ؟

عَمْرو: وَهَل الأرطَبُوُن أعزُّ عَلى سُيوفِ المُسلمين مِنْ هِرقَل إمبراطور الرُّوم؟!

فاغتَاظَ الأرْطَبُون وأمَر لَهُ بجائزةٍ كَبيرةٍ، وأرسَل إلى بَوابِ الحِصْنِ أنْ يَقْتُله إذا مَرَّ به خَارجاً.

مَشى عمرْو يحملُ الجَائزةَ، ويُلاحظُ منْ حَوْله استعدادَ العَدو.

واقتربَ بَوابُ الحِصْنِ مِنْ عَمْرو وكَانَ قَدْ علِمَ ما أضْمَرهُ

الأرطبونَ وهَمسَ إليه فِى حَذرٍ: قَدْ أحْسنتَ الدُّخُولَ فأحْسنِ الخرُوجَ!!.

وفَطنَ عَمْرو إلى الأمرِ، ورَجَعَ مُسْرِعاً إلى الأرْطَبونَ فصَاحَ القَائدُ:

- لِمَ عُدْتَ أيُّهَا العَرَبىُّ؟

قَالَ عَمْرو: نَظَرتُ فيما أعْطيْتَنى فَوجْدُته لا يَسَعُ بَنى عمِّى فرأيتُ أنْ آتيكَ بَعشَرةٍ منهم ليكونَ معرُوفُكَ أوْسَعُ وفَضْلُكَ أعَمُّ.

فطمعَ القَائدُ فى قَتْله وقَتل عَشَرة منْ أصْحابه، فَقالَ: حَسَناً اذْهَبْ وائتنى بهم. وبَعثَ إلىَ الحاجبَ: لا تَقْتُلَ الرَّجُل، وخَرجَ عَمرْو من بَاب الحصْن سَالماً، ونجَا منْ القَتْل بدهَائه وحُسْن حيلَته، وعَرف فى هَذه المُغَامَرة استعدادَ جَيْش الأرْطَبون.

وزَحفَ عَمْرو بجَيشه إلى أجْنادينَ ودَارَتْ هُناكَ مَعْركَةٌ هائلةٌ انتَصرَ فيها المُسلمونَ وفَرَّ جَيشُ الرُّوم فى ثمَانين ألف إلى بَيْت المَقْدس.

وتَقدَّمَ عَمْرو بجَيشه وحَاصَرَ بَيْتَ المقدس أربعةَ أشْهُر، ولَمَّا عَلمَ المُحَاصَرُونَ عَدَم جَدْوى دفاعهم، طَلبُوا الصُّلحَ عَلى أنْ يُوقعَهُ الخَليفةُ بنفسه. فكَتبَ عَمْرو إلى عُمرِ بنِ الخطاب يستشيرهُ، فركبَ

أميرُ المؤمنينَ دابَتهَ بُصُحْبة خادمَه إلى بَيْت المَقْدس وعقَد مَعَ البَطارقة صُلْحاً. ولَمَّا حَضَرتْ الصَّلاةُ خرَجَ أميرُ المؤمنين منْ الكَنيسة وصَلَّى الظُّهر. وبَعْدهَا دَخَل المُسلمون القُدسَ مُكبرِّين. وفى هذه الأثناء فرَّ الأرْطَبون ـ أميرُ فلسطين ـ إلى مصْر.

أقامَ عَمْرو بنُ العاص بفلَسطين بَعْد أنْ أصْبحَ وَالياً عَليْها، ثُمَّ استَأذَنَ أميرَ المؤمنين فى فَتْح مصْرَ ومُطارَدة الأرْطَبون - الذى أقْسمَ أنْ يَعودَ بجَيْش كَبير يُبدِّد المُسلمين.

أعدَّ عَمْرو بنُ العاص جَيْشاً هَائلاً وأنطَلقَ عَبْر رمال سَيْناءَ إلى مصرَ فاتحاً البلادَ التى فى طريقه حتى وَصلَ إلى حصْن بابليون. وكانَ الرُّوم قَدْ دَخلُوا الحصْنَ ومَعهُم أكَابر المصْريين والمقوقس عَظيمُهُم. وحَاصَرَ المُسلمون الحصنَ سبعةُ أشْهرٍ. ورأى عَمْرٌو ضَرورةَ أقتحام الحصنْ.

ووُضعتْ خُطةٌ للاقتحام، وهى أنْ يَصْعدَ الزُبيرُ بنُ العوام فى سُلَّم ويبلُغَ رأسْ الحصن ويُكبَر، فيُكبِّر المُسلمونَ تكبيرةً واحدةً تَهُزُّ الأرَجاءَ وتُزلزلُ أفئدةَ الحَامية. ونجَحتْ الخُطةُ، وظَنتْ الحَاميةُ أن تكَبيرَ المُسلمينَ صادرٌ من جَوْف الحصْن وأنّ المُسلمينَ اقْتحمُوهُ ففرُّوا إلى مَخابئهم تَاركين الأبوابَ. وهُنا انسابَ المُسلمون داخلَ

الحصْن يَحصُدونَ رؤوسَ الرُّوم بسيُوفهم، واستْسلَمَ تُيودوُر قائدُ الرُّوم، فأوقَفَ عَمْرو القَتْل وأمَرهم بإخلاء الحصن فى ثلاثة أيام. وخَلَّص عمرو المصْريين مْن قَهْر الرُّومان الذينَ استَعبدُوهم مئات السِّنين. وفَرضَ عَلى المصْريين جزْيةً وتَركَ لهُم حُريّةَ الدُّخولَ فى الإسلام أو البَقاء عَلَى دينهم. ثُمَّ فَتَح عَمْرو الإسكنْدَريةَ بَعْد حصار دَامَ ثلاثة أشْهُر وَوَلَّىَ علَيها عَبدَ الله بنُ حُذافةَ، وانْصَرف إلَىَ الفُسْطاط ليَعمُرهَا ويُشيِّد فيها المَساجد. ودَخلَ كَثيرٌ منْ المصْرِّيين فى الإسْلام حُباً فى عَمْرو وإيماناً بدينه.

وعَنى عَمْرو بالترُّع والجُسُور عَلى النِّيل وخَفَّفَ الضَّرائبَ التَى كَان فَرضَها الرُّومان، وتَنفَّس المَصْرِيُّونَ هَواءَ الحُرية عنْدما رأوا فى المُسلمين أخلاقاً كَريمةً وعفَّةً وَعَدلاً، ورأوا الحاكمَ مثالاً طَيِّباً للحكْمة والذكاء والعَدْل.

وفى خلافة مُعاويةُ بن أبى سُفْيان، اشْتَدَّ عَلى عَمْرو بنُ العاص المرضَ، ومَاتَ باكياً مُسْتغفراً رَاجياً رحمةَ ربه. ودُفنَ فى سَفْحِ جَبَلِ المُقَطَّم بمدَينة الفُسْطاط.

تَمَتَ بحَمْد اللَّه